﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ترغيبُ المؤمنين ثانيةً في الجهاد في سبيل الله، والذّبّ عن دينه وحماه

هذا ذكرُ طريقٍ آخرَ في ترغيبِهم في الجهاد، وذلك لأنَّه تعالى ذكرَ في الآية الأولى أنَّهم إن لم ينفروا باستنفار رسول الله لهم، ولم يشتغلوا بنُصرته؛ فإنَّ اللّهَ ينصرهُ بدليلِ أنَّ اللّهَ نصرَهُ، وقوَّاهُ حالَ ما لم يكن معهُ إلَّا رجلٌ واحدٌ[1]، ولمَّا وصف سبحانه نفسَه العليَّةَ بما هو أهلٌ له من شُمولِ القدرةِ، وعظيمِ البأسِ والقوَّةِ، أتبعَ ذلك بدليلٍ يتضمَّنُ أنَّ المستنفرَ لهم، وهو نبيُّه ﷺ غيرُ محتاجٍ إليهم، ومتوقِّفٍ نصرُهُ عليهم، كما لم يَحْتَجْ إليهم - بحِياطةِ القادرِ له - فيما مضى من الهجرةِ التي ذكرها[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنصُرُوهُ﴾: نَصَرَ: النُّونُ والصَّادُ والرَّاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائه، ونصْرُ اللّهِ المسلمين: آتاهم الظَّفَرَ على عدوِّهم ينصُرُهم نصْرًا، وانتصر: انتقمَ، وهو منهُ[3]، و"النَّصرُ والنُّصْرةُ: العونُ. ونُصرةُ اللّهِ للعبد ظاهرةٌ، ونُصرةُ العبدِ للّه هو نُصرتُه لعبادِه، والقيامُ بحفظِ حدودِه، ورعايةِ عهودِه، واعتناقِ أحكامه،

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/64.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 3/319، 318.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).

واجتنابِ نهيهِ. والتَّناصرُ: التَّعاونُ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ [الصافات: 25]"[1]. والمعنى هنا: اللّه ناصرٌ نبيَّه على كلِّ حال.

2) ﴿أَخْرَجَهُ﴾: خَرَجَ: "الخاءُ والرَّاءُ والجيمُ أصلانِ، وقد يمكنُ الجمْعُ بينهما، إلَّا أنَّا سلكْنا الطَّريقَ الواضحَ، فالأوَّلُ: النَّفاذُ عن الشَّيء، والثَّاني: اختلافُ لونين. والخروجُ: خروجُ السَّحابة"[2]، وخرجَ خروجًا: برزَ من مقرِّهِ أو حالهِ سواءٌ كان مقرُّهُ دارًا أو بلدًا أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُه حالةً في نفسِهِ، أو في أسبابِهِ الخارجةِ، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾. والإخراجُ: أكثرُ ما يكونُ في الأعيانِ نحو: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾، ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾[3]، وهو المرادُ هنا.

3) ﴿ٱلْغَارِ﴾: غَار: الغَينُ والألفُ والرَّاء، والألفُ في هذا البابِ لا تكونُ إلَّا مبدلةً، ويُطلَقُ على معانٍ متعدِّدَةٍ، فالغارُ: نباتٌ طيِّبٌ، والغارُ لغةً في الغَيرة، والغارُ: الجيشُ العظيمُ، والغارُ: غارُ الفَمِ، والغارُ: أصلُ الرَّجل وقبيلتُه، والغارُ: الكهف"[4]، والأخير هو المعنى المرادُ هنا.

4) ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾: صَحِبَ: الصَّاحبُ الملازِمُ، ولا فرقَ بين أن تكونَ مصاحبتُهُ بالبدنِ، وهو الأصلُ والأكثر، أو بالعنايةِ والهمَّة، ولايقال في العُرف إلَّا لمن كَثُرت ملازمتُهُ، ويقالُ للمالِكِ للشَّيءِ هو صاحبُه، وكذلك لمن يملك التَّصرُّفَ فيه... والمصاحبةُ والاصطحابُ أبلغُ من الاجتماعِ؛ لأجلِ أنَّ المصاحبةَ تقتضي طولَ لُبْثِهِ، فكلُّ اصطحابٍ اجتماعٌ، وليس كلُّ اجتماعٍ اصطحابًا"[5]، والمرادُ هنا سيِّدُنا أبو بكر ﷺ لكثرة ملازمتهِ الرَّسولَ ﷺ.

5) ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾: قال اللّه ﷻ: ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ فعَّلتُ مِنَ الأيْدِ، أي: القوَّةُ الشَّديدةُ، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُكثرُ تأييدَهُ[6]. وقد ورد التأييد في القرآن الكريم تسع مرات، وُصِل ثلاثَ مرات بروح القدس، وكانت بشأن سيدنا عيسى

(1) الرّاغب، المفردات: (نصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).
(3) الرّاغب، المفردات: (خرج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة:، والرّاغب، المفردات: (غار).
(5) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(6) الرّاغب، المفردات: (أيد).

ﷺ، وثلاثًا بنصر الله بشأن سيدنا محمد ﷺ وعلى جميع النبيين[1]. والمعنى هنا: قوَّاه الله ونصره.

6) ﴿كَلِمَةَ﴾: كَلَمَ: الكاف واللَّامُ والميمُ أصلان: أحدُهما يدلُّ على نطقٍ مُفْهِم، والآخرُ على جراحٍ، ثم يتَّسِعون فيُسَمُّون اللَّفظةَ الواحدةَ المُفهِمَة: كلمةً، والقصَّةَ كلمةً، والقصيدةَ بطولها كلمةً، ويجمعونَ الكلمةَ كلماتٍ وكَلِمًا[2] وقد وردَ لفظُ (كلمة) عدَّةَ مرَّاتٍ في الذِّكرِ الحكيم، ومعنى ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: الشِّركُ، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾: التَّوحيدُ.

7) ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾: سَفَلَ: "السِّين والفاءُ واللَّام أصلٌ واحدٌ، وهو ما كان خلافَ العلوِّ، فالسُّفل سُفْلُ الدار وغيرها، والسُّفول: ضدُّ العلوِّ، والسَّفِلةُ: الدُّون من النَّاس، يقال: هو من سَفِلَة النَّاس، والسَّفال: نقيضُ العَلاء"[3] السُّفْلُ: ضدُّ العلوِّ، وسُفْلٌ، فهو سافلٌ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وأسفلُ ضدُّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وسفُل: صارَ في سُفْلٍ، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾[4]. والمعنى هنا: حقيرةً مَقهورةً.

8) ﴿ٱلْعُلْيَا﴾: عَلَوَ: العَينُ واللَّام والحرفُ المعتلُّ ياءً كان أو واوًا أو ألفًا أصلٌ واحدٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاع، لايشذُّ عنه شيءٌ، ومِن ذلك العلاءُ والعلوُّ، قال الخليل: أصلُ هذا البناءِ العُلُوُّ، فأمَّا العَلاءُ؛ فالرِّفْعةُ، وأمَّا العُلوُّ؛ فالعظمةُ والتَّجبُّرُ، ويقال لكلِّ شيءٍ يعلو: علا يعلُو، فإن كان في الرِّفْعة والشَّرفِ، قيل: عَلِيَ يَعْلَى، ومن قهَر أمرًا؛ فقدِ اعتلاه، واستعلى عليه، وبهِ... والسَّموات العُلَى الواحدة عُلْيا[5]، العلوُّ: ضدُّ السُّفْل، والعُلْويُّ والسُّفليُّ: المنسوبُ إليهما، والعُلُوُّ: الارتفاعُ، وقد علا يعلو علوًّا، وهو عالٍ[6]. والعليا: ضدُّ السُّفلى. والمعنى هنا: الغالِبةُ المنصورةُ على الشِّركِ وأهْلِه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفل).
(4) الرّاغب، المفردات: (سفل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(6) الرّاغب، المفردات: (علا).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تكفُّل اللهِ بنصرة رسوله الأكرم، على أعداء دينه، وإظهاره عليهم

تخاطبُ الآيةُ الكريمةُ أصحابَ رسول الله ﷺ إن لم تنصروهُ، ولم تطيعوه للجهادِ في سبيل الله، فسينصرهُ اللهُ بقدرته وتأييده، كما نصره وقتَ أن أجمع المشركون على الفتكِ به، أو إخراجهِ من بلده أو حبْسِه؛ نصرَهُ الله في ذلك الوقت، ولم يكن معه أنصارٌ ولاجيشٌ، بل حالُ كونهِ ثانيَ اثنين وواحدًا منهما هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، إذ هما في الغارِ المعروفِ في جبل ثورٍ؛ إذ يقولُ لصاحبه أبي بكرٍ رضي الله عنه حين فزِعَ لمّا رأى المشركينَ، وقال يارسولَ الله: واللهِ لو نظر أحدُهم تحتَ قدمه لأبصرَنا، يقول له النَّبيُّ ﷺ: «**لا تحزنْ إنَّ اللهَ معنا**»[1]، فأنزل اللهُ الطمأنينةَ في قلب رسول الله ﷺ، أو على أبي بكرٍ حتى هدأَ روعُه، وقد أيَّد اللهُ نبيَّه ﷺ بجنودٍ من عندِه – وهم الملائكة – لم يرها أحدٌ من البشر، وجعلَ اللهُ كلمةَ الكافرين ودولَهُم سفلى حقيرةً مَقهورةً، وكلمةُ اللهِ ودولتُهُ الغالبةُ المنصورةُ على الشِّركِ وأهْلِه، واللهُ عزيزٌ غالبٌ لايغلبُه أحدٌ، وحكيمٌ يضعُ الأمورَ في نصابِهَا[2].

وترشد الآيةُ الكريمةُ إلى مَنقبةٍ عظيمةٍ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وإلى علوِّ منزلته، وقوةِ إيمانه، وشدةِ إخلاصه لله تعالى ولرسوله ﷺ، وأظهر الصدِّيقُ رضي الله عنه خلالَ مصاحبته للرسول ﷺ الكثيرَ من ألوان الوفاء والإخلاصِ وصدقِ العقيدة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف البيانيّ:

النُّصرةُ الفارطة بلا نفيرٍ ولا رجالٍ، تؤكِّد النُّصرةَ لدين اللهِ ورسولهِ في كلِّ الأحوال

هذا استئنافٌ بيانيٌّ لقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ لأنَّ نفْيَ أن يكونَ قعودُ أصحابِ رسول الله ﷺ عن النَّفير مُضِرًّا باللهِ ورسوله؛ يثيرُ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (3652)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2009).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 10/74، 73.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/290.

في النَّفس سؤالًا عن حصول النَّصر بدونِ نصيرٍ، فبيَّن بأنَّ اللّٰهَ ينصرهُ كما نصرَهُ حين كان ثانيَ اثنين لاجيشَ معهُ، فالَّذي نصرهُ حين كان هو وأبو بكر الصديق ﷺ في الغار وحدهما قديرٌ على نصرهِ، وهو في جيشٍ عظيم، فتبيَّن أنَّ قعودَهم عن النَّفيرِ لا يضرُّ اللّٰهَ شيئًا[1]، والظَّاهر أنَّ الآيَةَ الكريمةَ ممَّا قبلَها تشبهُ موقعَ تأكيدِ تهديدِ المتثاقلين بطريقٍ آخرَ، وهو نصرتُه ﷺ من غيرِ حاجةٍ إلى رجال، والاستدلالُ بالماضي من حالهِ ﷺ حين الهجرةِ، ولم يكنْ معه سوى أبي بكرٍ، وقد أجلبَ المشركون بخيلِهم ورَجِلِهم، وجدُّوا في طلبه، ولم ينالوا شيئًا، والغرضُ من ذلك تأكيدُ حصولِ ذلك مستقبلًا، فليس النَّفيرُ للجهاد بعائدٍ خيرُهُ على دين اللّٰه ورسوله، وإنَّما عوائدُهُ على من استُنْفِرَ، فنفَرَ، ولبَّى.

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملةِ الشَّرطِ:

افتُتِحَتِ الآيةُ الكريمة - كسابقتها - بأسلوبِ الشَّرط، في مقام التَّهديد والوعيدِ باصطفاء أسلوبٍ حجاجيٍّ بالغِ القوَّةِ، وهو الارتكازُ على الماضي من التَّاريخ في تأكيدِ تحقيقِ النُّصرة بلا حاجةٍ لنفير ولارجال، وقد جاءَ فعلُ الشَّرط مضارعًا منفيًّا بـ (لا)، واقترنَ جوابُه بـ (قد)، تأكيدًا لحصول النَّصرِ مِنَ اللّٰهِ عند عدمِ مناصرتهِ منهم، وهو ربْطٌ عجيبٌ للوجود بالعدم، فقد جُعل أسلوبُ الشَّرط عدمَ نصرِهم رسولَ اللّٰه ﷺ سبيلًا لنصرةِ اللّٰهِ له، فنصْرُه هو الأعلى، وعونهُ وتأييدُه لنبيِّه هو الأوفى.

تعليقُ حصولِ النَّصرِ على عدمِ نصرتِهم إيَّاه، جعْلٌ للعدمِ سببًا للوجودِ

فائدةُ حذفِ جوابِ الشَّرط:

الشَّرطُ في الآيةِ جوابُه محذوفٌ، واكتُفي بما يدلُّ عَليهِ وهو قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا تنصروهُ؛ فسينصرُهُ اللّٰهُ، أو التَّقدير: إلَّا تنصروهُ؛ فهو غنيٌّ عن نصرتِكم بنصرِ اللّٰه إيَّاهُ؛ إذ

تأكيدُ تحقيقِ النَّصرِ بحذف الجوابِ، لتوفير العنايةِ على الدَّليل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/201، 200.

قد نصرَهُ في حين لم يكن معَهُ إلَّا واحدٌ، فكما نصرَهُ يومئذٍ ينصرهُ حين لا تنصرونهُ، فالمذكورُ عِلَّةٌ للمحذوف؛ لأنَّ المذكورَ ماضٍ ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ﴾، ولا يصلح جوابًا للمستقبلِ ﴿تَنصُرُوهُ﴾[1]، ففي حذْفِ الجواب، والاكتفاءِ بنصب الدَّليل عليه تأكيدٌ لتحقُّق النَّصرِ، كما تحقَّقَ من قبلُ، وشَدٌّ لعقولِ المثَّاقلين.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ فعلٌ مضارع، زمنه هو الزمن الحالي، ولكن الحقَّ يتبع المضارع بفعلٍ ماضٍ هو: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، فهل يكون الشرط حاضرًا أم مستقبلًا، والجواب ماضيًا؟ المعنى: إلَّا تنصروه فسينصرُه اللّه؛ بدليل أنه قد نصره قبل ذلك. وهذا ليس جوابَ شرطٍ، وإنما دليلُ الجواب، فحين يكونُ دليلُ الجوابِ ماضيًا، فهو أدلُّ على الوثوق من حدوثِ الجواب، فحين دعاهم اللّهُ لينفِروا فتثاقلوا، أوضحَ لهم سبحانه: أتظنون أن جهادَكم هو الذي سينصرُ محمدًا وينصرُ دعوتَه؟ لا؛ لأنه سبحانه قادرٌ على نصره بدونكم، والدليلُ على ذلك أنَّ اللّه قد نصرَه من قبلُ في مواطنَ كثيرةٍ، وأهمُّ موطنٍ هو النصرُ له في الهجرة، وقد نصره برجلٍ واحدٍ هو أبو بكر الصديق ﷺ على قريشٍ وكلِّ كفار مكة، وكذلك نصره في بدرٍ بجنود لم تروها، فسابقةُ النَّصر من اللّه لرسوله سابقةٌ ماضيةٌ[2].

دلالةُ اقتران جوابِ الشَّرط بـ (قد)، وإسنادِ الفعل للاسمِ الجليل:

عدمُ النُّصرةِ من النَّاس، سبيلٌ لنصرِ اللهِ لهُ بيقين

الفاءُ للرَّبط، وقد دخلت (قَدْ) على الفعلِ الماضي؛ تأكيدًا لتحقيق حصولِ ذلك سابقًا، ممَّا يؤكِّد حصولَه لاحقًا، وممَّا يستدعيه المقامُ، وإن كان تصديقُه راسخًا عند الكافَّة؛ لأنَّ النُّفوسَ تُقبِلُ عليه كلَّما جاء ذكرُه؛ لأنَّه مذهلٌ من فرط ما فيه من خرقِ العادةِ، وما

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/519، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/45 والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/64، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/94، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/51، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/201.

(2) االشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/5124.

تَرتَّبَ عليه من عِظَمِ الأثرِ، وما تخلَّلَه من مفاجآتٍ تحبِسُ الأنفاسَ، فلا يزال المستمِعُ مصغيًا للملقي إليه خبرَها وتفاصيلَه أبدًا.

وقد أُسنِدَ الفعلُ إلى الاسم الجليلِ إدخالًا للمهابة والجلالِ على نفوس المتثاقِلين، وإعلانًا لتفرُّدِه سبحانه بالنُّصرة، وكلُّ ما في الدليل تعودُ فائدتُهُ على المدلول عليه المحذوفِ.

سرّ تتابع ظرفِ الزَّمان، ودلالتُهُ:

التَّذكيرُ بالأوقاتِ الثّلاثة، مؤكِّدٌ حصولَ النُّصرةِ مِـنَ اللـهِ بلا حاجةٍ للنَّاس

اصطفى النَّظمُ القرآنيُّ ظرفَ الزَّمان (إذ) ثلاثَ مرَّاتٍ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾، ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾، ﴿إِذْ يَقُولُ﴾، يفيدُ الظَّرفُ هاهنا استرجاعَ زمنِ النُّصرة، والظرفُ الأوَّلُ يصفُ حالَه ﷺ وقتَ الخروجِ لا أحدَ معه سوى أبي بكرٍ، والظَّرفُ الثَّاني يُذكِّرُ بأصعبِ حالٍ حين كان سويًّا في غارٍ ضيِّقٍ لا مخرجَ له سوى من طريقِ الأعداءِ، ولامهربَ منه، والظَّرف الثَّالثُ تذكيرٌ بوقتِ قولِه لأبي بكرٍ حين استشعرَ ﷺ الحزنَ، والملحوظُ أنَّ ترتيبَ هذه الظروفِ بدأتْ مِنَ الأوسعِ (وقتُ الخروجِ) إلى الأضيقِ (وقتُ البقاءِ في الغار) إلى الأضيقِ منه (وقتُ وصولِ الكفَّار ووقوفِهم على فمِ الغار) وكلُّ ذلك ممَّا يجلِّي فضلَ اللهِ في نصرةِ أوليائِه، ودحْرِ أعدائِه.

بلاغةُ القيدِ بظرفِ الزَّمانِ (إذ):

التَّذكيرُ بالأوقاتِ الثّلاثة العصيبةِ يـجـلِّي عـظـمـةَ التَّأييدِ الإلـهـيِّ لأولـيـائـهِ وقـتَ الشَّدائدِ

الظَّرفُ متعلِّقٌ بالفعل ﴿نَصَرَهُ﴾، ومضافًا إلى الجملةِ ﴿أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ﴾، يعني: قد نصرَهُ اللهُ في الوقتِ الَّذي أخرجَهُ الذين كفروا من مكَّة، وهذا الظَّرفُ يسترجعُ زمنَ إخراجِه ﷺ من مكَّة، والجملةُ فعليَّةٌ فعلُها ماضٍ؛ ليتضمَّن ما مضى من فعلِهم الشَّنيعِ من إخراجِه من مكَّةَ، وأعظمُ الفِتَنِ الإجبارُ على تَرْكِ الوطنِ، فقد جعلَهُ اللهُ عِدْلَ قتلِ النَّفسِ، ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: 66] وقد جاء المسندُ إليه اسمًا موصولًا لتنبنيَ عليه جملةُ الصِّلةِ الدَّالَّةِ على القسوةِ والغِلَظِ

وشراسةِ العداءِ في استحكامِ المفارقةِ والمنافاةِ بين الطَّرفَين بما لا يقبلُ المجامعةَ في بلدٍ، وقدَّم المفعولَ به، الضَّميرَ في ﴿أَخۡرَجُهُ﴾ على الفاعلِ لبيانِ أنَّ عنايتَهم انصبَّت عليه في التَّخلُّص منه بأيِّ سبيلٍ، ممَّا يَبينُ عن عَداوتِهم، وكلُّ ذلك ممَّا يصوِّرُ عظمةَ عونِ اللّه له، ونصرتِهِ إيَّاه في مقابل تلك العداوةِ، "وأسندَ الإخراجَ إلى الكفَّارِ، كما أسندَهُ إليهم في قولِهِ: ﴿مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ [محمّد: 13]؛ لأنَّهم حين همُّوا بإخراجِهِ أَذِنَ اللّهُ له في الخروج - كرامةً لِنَبيِّه بصيانته عن المطاردةِ، وإظهارًا لما له عندَهُ من الحِفظ، وليكونَ أَوَّلَ بادِرَةِ إيناسٍ في هجرتِهِ، لإظهارِهِ إحباطَ كيدِهم لهُ، وإفشالَ سعيهم ضدَّهُ، بتولِّيه أَمرَه - فكأنَّهم أخرجوه"[1]، فهو إسنادٌ مجازيٌّ[2]، وفيه أيضًا بيانٌ لجريمتِهم، فمن كان سببًا في الفعل؛ تحمَّلَ وِزرَهُ.

لطيفةُ قيدِ المفعولِ به بالحالِ:

قولهُ: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ نصْبٌ على الحال من الضَّميرِ في ﴿أَخۡرَجُهُ﴾، والثَّاني: كلُّ مَن كانَ بهِ العددُ ثانيًا، وهو اسمُ فاعلٍ مضافٌ إلى الاثنين على معنى (مِنْ) أي: ثانيًا مِن اثنين، ولا ثالثَ لهما[3]، والمعنى: أخرجوهُ منفردًا من جميعِ النَّاس إلَّا مِن أبي بكرٍ، أي: نصرَهُ منفردًا، ونصرَهُ أحدُ اثنين[4]، وهذه الحالُ تصوِّرُ انفرادَهُ ﷺ مع قوَّةِ المُطاردِ ممَّا يؤكِّدُ أنَّ نصرَ اللّهِ له كانَ مؤزَّرًا.

تأكيدُ نصرهِ ﷺ فردًا بلا ظهيرٍ

بلاغةُ التَّعبيرِ بظرفِ الزَّمانِ بدلًا:

قولهُ: ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾، والغار: نقْبٌ في أعلى جبلِ ثورٍ، والظَّرفُ بدلٌ من ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ﴾ بدلَ بعضٍ من كلٍّ[5]، وقد أُضيفَ الظَّرفُ إلى

اللهُ ناصرٌ نبيَّه والصّديق، مهما كـانـتِ الـشِّـدَّةُ والضِّيقُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/520.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/45.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 13/373، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/202.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/211.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/520، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/66.

جملةٍ اسميَّةٍ دلالةً على الاستقرار والثُّبوت، وزمنُ الخروجِ مُتَّسِعٌ، وهذا الموقعُ الإعرابيُّ بديعٌ؛ إذ يصوِّر التَّدرُّجَ في المشقَّةِ، ويربطُ مسارَها بأوَّلِهَا، وجمعُ المشاقِّ - في سياق واحدٍ - له أثرٌ بالغٌ في الكشْف عن قيمةِ النَّصر.

نكتة الجمعِ بينَ النَّبيِّ والصِّدِّيقِ في ضميرٍ واحدٍ:

منـزلـةُ أبـي بـكـرٍ الـصِّـديـقِ وفضيلتُهُ على الـخـلـيـقـةِ، بـعـد الـنَّـبـيِّـيـنَ والمرسلين

أظهرَ جمعُ الضَّميرِ في قوله: ﴿هُمَا﴾ منزلةً سَنيَّةً، ورفعةً حظيَّةً لأبي بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ وكونُ المتكلِّم بهذا هو اللَّهُ تعالى له شأنٌ أعظمُ، ومقامٌ أفخمُ، وأكرمُ، ذلك أنَّ جمْعَ الضَّمير بين النَّبيِّ المتبوعِ المطاعِ الآمرِ، وبين أبي بكرٍ التَّابع الطَّائع المستجيبِ، لا يظهرُ منه تقدُّمُ الرَّسولِ على أبي بكرٍ، والواقعُ أنَّه مقدَّمٌ، فهذهِ تزكيةٌ مِنَ اللَّه لأبي بَكرٍ، إذ لو عَلِمَ اللَّهُ منه أنَّ ذلك سيرتفعُ بأبي بكرٍ في نفسِهِ ليرى نفسَهُ بمحاذاةِ رسولِ اللَّهِ في الفضلِ ما أنزلَ ذلك، لكن لمَّا كان لأبي بكرٍ من قوَّةِ اليقينِ وصحَّةِ الاعتقاد وحُسْنِ التَّوقير لرسولِ اللَّه ﷺ وكان مأمونًا عليهِ الفتنةُ؛ أنزلَ اللَّهُ هذا الثَّناءَ عليهِ.

ومأْخَذُ ذلك ومَلْحظه من حديثِ عديِّ بنِ حاتمٍ ﷺ أنَّ رجلًا خطبَ عندَ النَّبيِّ - صلّى اللَّه عليه وآله وسلَّم - فقال: "من يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ فَقَدْ رَشَدَ، ومن يعصهما؛ فقد غَوَى"، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «بِئسَ الخطيبُ أنتَ، قل: ومن يعصِ اللَّهَ ورسولَه»[1].

فهو إنَّما أنكرَ عليه لتشريكِهِ في الضَّمير المقتضي للتسويةِ، وأمرَهُ بالعطفِ تعظيمًا للّه تعالى بتقديم اسمِهِ، قالَهُ النَّوويُّ نقلًا عن القاضي عياضٍ وجماعةٍ[2].

وهذا لا يُعارَض بكلامِ الشَّارع في نحوِ حديث: «أن يكونَ اللَّهُ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (870)، وأبو داود في سننه، برقم: (4981)، والنّسائي في سننه، برقم: (3279).

(2) النّوويّ، شرح صحيح مسلم: 6/159.

ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما»[1]؛ لأنَّ كلامَ الشَّارعِ غيرُ كلامِ المكلَّفين، كما أقسمَ اللهُ بمخلوقاتِهِ، وليس لأحدٍ أن يَحْلِفَ إلَّا باللهِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بظرفِ الزَّمان بدلًا ثانيًا:

التَّذكيرُ بأخلَكِ المـواقـفِ، مع انتفاءِ المدافعِ، بـيـانٌ لعظيمِ نصْرِ اللهِ نبيَّهُ

قولُهُ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بدلٌ ثانٍ، وهو بدلُ اشتمالٍ[2]، وقد أُضيفَ إلى الظَّرف جملةٌ فعليَّةٌ، وعبَّرَ بالفعل المضارعِ بدلَ الماضي، استحضارًا للحالةِ الماضيةِ؛ كشفًا لنعمةِ المَعُونةِ الإلهيَّةِ، وفيها تذكيرٌ بأشدِّ الحالات في طريقِ الهجرةِ، ووقوع الظَّرفِ بدلًا ثانيًا لربطِ أوَّلِ الشِّدَّةِ بأعقدِها حالةً وأشدِّها ضيقًا، والمسندُ إليه ضميرٌ مستَتِرٌ لحضورِهِ في القلوب والأذهانِ، وعبَّر بقولِه: ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾، والتَّعبيرُ عن أبي بكرٍ ﷺ بهذا الوصفِ، ألمعَ إلى بعضِ العلماءِ أن يقولَ: من أنكرَ صحبةَ أبي بكرٍ؛ فقد كفرَ، لإنكارِهِ كلامَ اللهِ تعالى وليس ذلك لسائرِ الصَّحابةِ - رضوان الله عليهم[3]. والحقُّ أنَّ الكنايةَ عن أبي بكر بالصحبةِ بيانٌ لعظيم مكانِهِ، وعلوِّ قدْرِهِ عندَ ربِّه، "فإن قيلَ: إنَّ اللهَ تعالى وصفَ الكافرَ بكونِهِ صاحبًا للمؤمن في قولِه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ﴾ [الكهف: 37]، فالجوابُ: أنَّ هناك وإنْ وصفَه بكونِهِ صاحبًا إلَّا أنَّه أردَفَهُ بما يدلُّ على الإهانةِ والإذلالِ، وهو قوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾؟ أمَّا ههنا؛ فبعد أن وصفَهُ بكونِهِ صاحبًا ذكرَ بعدَهُ ما يدلُّ على الإجلالِ والتَّعظيم، وهو قولُهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، فأيُّ مناسبةٍ بينَ البابَين؟"[4].

غرضُ التَّعبيرِ بمقولِ القولِ، بجملةٍ إنشائيَّةٍ:

البشارَةُ بذهابِ المؤثِّرِ، عن طريقِ الانتهاءِ عنِ الأثرِ

في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾، عبَّرَ بمقولِ القولِ بجملةٍ إنشائيةٍ في صورةِ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (16)، ومسلم في صحيحه، برقم: (43).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 5/520 وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/45.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/51، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/95.

النَّهي بـ (لا)، وقد توجَّهَ النَّهيُ لِلفِعْلِ الَّذي لا يمكنُ الانتهاءُ عنه؛ لأنَّ الحُزْنَ أمرٌ وجدانيٌّ لا شعوريٌّ يحدُثُ جبْرًا بسببٍ خارجيٍّ لا اختيارًا، وما لا يقعُ اختيارًا لا يمكنُ الانتهاءُ عنهُ، فيكون المرادُ: لا تجعلْ لِلحزنِ إليك سبيلًا؛ لأنَّ اللّهَ سيُزيلُ أسبابَهُ، فيكونُ نهيًا بطريقِ الأبلغِ، فهو نهيٌ عنِ الأثرِ يُنبَّه بهِ على ذَهاب المُؤَثِّر.

نكتةُ تعليلِ النَّهي، بكونهما بمعيّة الله تعالى:

التَّعجيلُ بإزالةِ آثارِ الحُزْنِ، بعدَ الإخبارِ بمعيَّةِ اللهِ لهما

نلحظ أنّه أعقبَ النَّهيَ بجملةٍ تعليليَّةٍ مؤكَّدةٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ بيانًا لسببِ النَّهي عمَّا لا ينتهي عنه عادةً، وفي ذلك بشارةٌ كُبرى بتأييد اللهِ ونصرِهِ، وقد بُنِيَ التَّعليلُ بأسلوبٍ بليغٍ؛ إذ أُكِّدَ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ تنزيلًا لأبي بكرٍ ﷺ منزلةَ المتردِّدِ ممَّا يحثُّه سريعًا إلى إزالةِ آثارِ الحُزنِ، ولإنهاءِ البِشارة بأوكدِ الأساليبِ لطرافة البِشارة وغرابتِها، وفضلِ ما فيها على ما ماثلَها مِنَ البِشاراتِ، وإحلالِ السَّكينةِ والطُّمأنينةِ محلَّ الحُزنِ، ولتعليلِ النَّهي أثرٌ بالغٌ في إزالة المنهيِّ عنهُ، فكلَّما كان التَّكليفُ مُعلَّلًا؛ كان أقنعَ للمُخاطَبِ، "والمعيَّةُ هنا: معيَّةُ الإعانةِ والعنايةِ، كما حكى اللّهُ تعالى عن موسى وهارونَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: 46]، وقوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ [الأنفال: 12]"[1].

علوُّ معيَّةِ اللهِ للنَّبيِّ وأبي بكرٍ، عَلَى معيَّتِهِ لموسى ﷺ:

انفرادُ موسى بالمعيَّةِ دونَ أمَّتِهِ، وإشراكُ النَّبيِّ أمَّتَهُ معَهُ فيها، دليلُ الخصوصيّة

جاءَ في التَّنزيل العزيزِ الخبرانِ: الخبرُ عن معيَّةِ اللّهِ لموسى ﷺ والخبرُ عن معيَّةِ اللّه لمحمَّدٍ ﷺ أمَّا معيَّةُ اللّهِ لموسى؛ فقد كانت حينَ أسرى موسى بقومِهِ ليلًا، فأتبعهم فرعونُ بجنودِهِ مُشرِّقًا: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشُّعراء: 61، 62]

على حين أنَّ معيَّةَ اللّهِ لسيِّدنا محمَّدٍ ﷺ حين كانَ - وأبو بكر معَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203.

- في الغارِ، وجاء المشركونَ، فصعِدوا الجبلَ، وارتقوا فوقَ الغارِ، وكانت فتحةُ بابِ الغارِ تحتَ أقدامِهم، فقال أبو بكرٍ ﷺ: "يا رسولَ اللّه، واللّه لو نظر أحدُهم تحتَ قدمَيهِ لأبصرَنا"، فقال لهُ النَّبيُّ ﷺ: «يا أبا بكرٍ ما ظنُّكَ باثنينِ، اللّهُ ثالثُهما؟ يا أبا بكرٍ، لا تحزنْ إنَّ اللّهَ معنا»، وقد روى القرآنُ لنا هذا الحديثَ الشَّريفَ في معرضِ الإدلالِ به والإنعامِ والإكرامِ، يخبرُ اللّهُ به عَنْ مقولِ نبيِّه تخليدًا وتمجيدًا، وتأكيدًا وتأييدًا، فما الفارقُ بين المَعيَّتَينِ مِنَ العبارَتَين؟

إنَّ الفارقَ بينَ المعيَّتَين غيرُ منحصرٍ، فلنجتزئ منه بعضَ المعالمِ، فمِن ذلك:

أنَّ موسى قدَّم ذكرَ نفسِه، فقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، ومحمَّدٌ ﷺ قدَّم ذِكْرَ رَبِّهِ فَقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وأنَّ موسى ﷺ أفردَ نفسَهُ بالمعيَّةِ، فقال: ﴿مَعِيَ﴾ ومحمَّدٌ ﷺ جمعَ صاحبَه وأمَّتَهُ، فقال: ﴿مَعَنَا﴾، وأنَّ موسى ﷺ ذكرَ اللّهَ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ الدَّالِّ على الرِّعايةِ والنَّجاة مِن ملاحقةِ فِرعونَ ومَن مَعهُ من الجندِ، ومحمَّدٌ ﷺ ذكرَ اللّهَ باسمِهِ الأجلِّ الَّذي يستدعي جميعَ الأسماءِ الحُسنى والصِّفاتِ العُلا صفاتٍ لهُ، وأنَّ موسى ﷺ خصَّ المعيَّةَ بالهدايةِ، وسيِّدُنا محمَّدٌ - صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم - جعلَها مطلقةً غيرَ مقيَّدةٍ بوصفٍ، وأنَّ موسى ﷺ محّضَ المعيَّةَ للاستقبالِ بالمضارعِ والسِّين، أمَّا سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ فقد جعلَها عامَّةً كلَّ وقتٍ في الحال والاستقبالِ، وأنَّ موسى ﷺ جعلَ المعيَّةَ متجدِّدةً بالفعل ﴿سَيَهْدِينِ﴾، ومحمَّدٌ ﷺ جعلَها اسميَّةَ الجملةِ، فهي ثابتةٌ لا تنقضُّ، ولا تنقضي.

فما أسعدَ هذهِ الأمَّةَ الآخرةَ بنبيِّها صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم!

نـزولُ السَّكينةِ طـوى زمـنَ الـشَّـدائـدِ، وعـجَّـلَ بـإزالـةِ المخاوفِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

طوتِ الفاءُ الأحداثَ طيًّا، وابتلعتِ المخاوفَ والقلقَ، والشَّدائدَ والضِّيقَ، وكأنَّها لم يكن لها وجودٌ أصلًا، وللفاءِ أثرٌ بالغٌ في بيانِ

هذه المعاني، وهو مؤذِنٌ بأنَّ السَّكينةَ أُنزلت عَقِبَ الحلولِ في الغارِ وأُنزلت مترتِّبةً على قول النَّبيِّ لصاحبه الصِّدِّيق: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، "وتلك السَّكينةُ هي مظهرٌ من مظاهرِ نصرِ اللهِ إيَّاهُ، فيكونُ تقديرُ الكلام: فقد نصره الله فأنزل السكينةَ عليه وأيَّده بجنود حينَ أخرجه الذين كفروا، وحينَ كان في الغار، وحينَ قال لصاحبه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾"[1].

وجهُ البلاغةِ في تعلُّقِ الظُّروفِ الثَّلاثةِ بـ﴿نَصَرَهُ﴾:

ذِكْـرُ الأوقـاتِ الحوالكِ تعظيمٌ لمنَّـةِ الـلـه على نبيِّه ﷺ

يمكنُ أن تكونَ الظُّروفُ الثَّلاثةُ: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ﴾، ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾، ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾؛ متعلِّقةً بفعلِ ﴿نَصَرَهُ﴾ على التَّرتيب المتقدِّم، "وهي كالاعتراض بين المفرَّع عنه والتَّفريع، وجاء نظمُ الكلامِ على هذا السَّبكِ البديعِ للمبادَأَةِ بالدِّلالةِ على أنَّ النَّصرَ حصلَ في أزمانٍ وأحوالٍ ما كان النَّصرُ يحصلُ في أمثالِها لغيرهِ لولا عنايةُ اللهِ به، وأنَّ نصرَهُ كان معجزةً خارقًا للعادةِ"[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي مسندًا إلى الاسمِ الجليلِ:

التَّعجيلُ بالبشارةِ يُزيلُ كلَّ المتاعبِ

في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾، نلحظ أنّ الله عبَّرَ بالماضي، والمقامِ للمضارعِ، تناسبًا مع ما سبق ﴿يَقُولُ﴾، ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾؛ لتحقيقِ الوقوعِ عقيبَ القولِ، وعبَّر بـ﴿فَأَنزَلَ﴾ لبيانِ علوِّ قدْرِ السَّكينةِ، وتفرُّدِ الحقِّ بتحقيقِ ذلك؛ لأنَّ النَّصرَ من عندِ الله وحدَهُ، وأسندَ الفعلَ إلى الاسمِ الجليل لبيان قدْرِ المُنَزَّلِ من السَّكينةِ، فهو ممَّن تفرَّد بالألوهيَّةِ فهي سكينةٌ متفرِّدةٌ عظيمةُ الأثرِ بالغةُ القدْرِ، وقدِ ازدادَ القدْرُ قدْرًا بإضافةِ السَّكينةِ إلى الضَّميرِ العائدِ للاسمِ الجليل، ففي الإضافةِ تشريفٌ ومضاءُ أمرٍ وتعظيمُ أثرٍ وإشعارٌ بالحمايةِ والوقايةِ والحفظِ والتَّأييدِ والإغناءِ والكفايةِ وسَعةِ الفضل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/204.

تنوُّعُ مرجعِ الضَّميرِ ﴿عَلَيۡهِ﴾ ودلالتُهُ:

طولُ الصُّحبةِ، والملازمَةِ توحِّدُ النُّفوسَ

"الضَّميرُ عائدٌ على صاحبِه، أو على الرَّسولِ ﷺ قاله الجمهورُ، أو عليهما، وأفردَهُ لتلازمِهما"[1]، وقد رجَّح بعضُ المفسّرين أن يكونَ الضَّميرُ عائدًا على أبي بكرٍ؛ لأنَّه أقربُ مذكورٍ، ولئلَّا يلزمَ خوفُ الرسولِ ﷺ وهو ممَّا لا يليقُ بهِ[2]، ولا يمنعُ هذا من أن يعودَ الضَّميرُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ لأنَّ ذِكْرَ أبي بكرٍ رضي الله عنه جاء عَرَضًا، وذِكْرُهُ ﷺ هو الأصلُ، وذلك بمراعاةِ تعلُّقِ الظَّرف ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بالفعل الأوَّلِ ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾"[3].

دلالةُ عطفِ الجملةِ بالواو:

تعـدُّدُ مواقفِ نصرِ الله لنبيِّه الأكـرم، يُجيزُ كـلَّ وجـوهِ العَطْفِ

قولِه: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾، نجد أنّه اختُلِفَ فيما عُطِفت عليه هذه الجملةُ، "فيجوز أن تكونَ الجملةُ معطوفةً على جملة ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ عطْفَ تفسيرٍ، ويكونَ المرادُ بالجنودِ الملائكةَ الذين ألقوا الحَيْرةَ في نفوس المشركين، فصرفوهم عنِ استقصاءِ البحثِ عنِ النَّبي ﷺ وإكثارِ الطَّلبِ وراءَهُ والترصُّدِ له في الطُّرق المؤدِّيةِ والسُّبل الموصلةِ. ويجوز أن تكونَ معطوفةً على جملة ﴿أَخۡرَجَهُ﴾ والتقديرُ: وإذ أيَّدهُ بجنودٍ لم تروها، أي: بالملائكةِ يومَ بدرٍ، ويومَ الأحزابِ، ويومَ حُنينٍ"[4]، وجُلُّ المفسِّرين على أنَّ الجملةَ معطوفةٌ على ما قبلَها، غيرَ أنَّهم ذكروا أنَّ الضَّميرَ في ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ عائدٌ على النَّبيِّ ﷺ كما ذكروا أنَّ المرادَ بالجنودِ الملائكةُ الَّذين كانوا يومَ بدرٍ، وينصرُ رأيَهم ما جاء في سورتَي آل عمران والأنفال مِنَ التَّأييد بالملائكة يومَ بدرٍ، وبأنَّه سمَّاهُ يومَ الفرقانِ، به فرَّق اللهُ بين الحقِّ والباطلِ، وجعل كلمتَهُ هي العليا، وكلمةَ الَّذين كفروا هي

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/45.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/204.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/205، 204.

السُّفلى[1]، وكلُّ هذه الوجوهِ لاتتعارَضُ لكونِهَا مجتمعةً في مواقفَ أيَّد اللّهُ فيها نبيَّهُ ﷺ ونصرَهُ، وفي سياقاتِ الذِّكر الحكيمِ ما يؤيِّدُ كلَّ ذلك، وهذا من بلاغة توجيهِ العطف.

سرُّ التنكير والوصف بالجملة:

جـنـودُ الـلـهِ لا حصرَ لهم، ولا يمكنُ رؤيتُهم، ولا الإحاطة بهم

قوله: ﴿بِجُنُودٍ﴾، الغرضُ مِنَ التَّنكيرِ التَّكثيرُ والتَّعظيمُ، وقد وصفَهم النَّظمُ الكريمُ بجملة فعليَّةٍ ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وقد دلَّت هذهِ الجملةُ على أنَّ من خصائصِ هذه الجنودِ أنَّها غيرُ ممكنةِ الرُّؤيةِ للبَشرِ، ممَّا يجعلُها أكثرَ تأييدًا، وأقوى نُصْرةً، وهذه الجملةُ حملت المفسِّرين على تفسيرِ الجنودِ بالملائكة. ويؤيِّدُ هذا المعنى ما ورد عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قوله عن يوم بدرٍ: «بَيْنَما رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَومَئِذٍ يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ المُشْرِكِينَ أَمامَهُ، إذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الفارِسِ يقولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إلى المُشْرِكِ أَمامَهُ، فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إلَيْهِ فَإذا هو قدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فاخْضَرَّ ذلكَ أَجْمَعُ، فَجاءَ الأَنْصارِيُّ، فَحَدَّثَ بذلكَ رَسولَ اللّهِ ﷺ، فَقالَ: صَدَقْتَ؛ ذلكَ مِن مَدَدِ السَّماءِ الثّالِثَةِ، فَقَتَلُوا يَومَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ»[2].

وفائدةُ قولِه: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يردُّهم إلى تصديق المخبِرِ، فلم يبقَ لهم إلّا الانقيادُ له في جميع ما أمرَ، ومنه النَّفْرُ خِفافًا وثِقالًا، كما سيأتي عقيب هذهِ.

براعةُ التَّعبيرِ بعطف النّتيجة، وبالفعل الماضي:

الـوقـائـعُ تقلِبُ أفـكـارَ الـنّـاسِ، لِتـعـلّـقِ الأقـدارِ بربِّ البشرِ

قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾، هذا العطفُ يشبهُ أن يكونَ عطْفَ نتيجةٍ، والتَّعبيرُ بالفعل (جعل) ماضيًا يفيدُ حتْميَّةَ

(1) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/206، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/521، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/36، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68 وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/97، 96، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/321.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1763).

سُفول كلمةِ الكافرين، حتَّى وإن بدا للنَّاس كثرةُ عَددِهم، وعُددِهم ممَّا يؤدِّي وجودُه في فِكرِ البَشَرِ إلى الغَلبَة، لذا عبَّر بالفعلِ ﴿وَجَعَلَ﴾ تعبيرًا عن تحويل مُعتقدِهم المُتَّكِئ على كثرةِ العَدد والعُدد؛ "لأنَّ أمْرَ المشركين كانوا مَظِنَّة القوَّةِ والشِّدَّة"[1].

دلالةُ وقوعِ ﴿كَلِمَةَ﴾ مفعولًا بهِ أوَّلَ، مضافًا إلى الاسم الموصولِ:

سُفُولُ الكلمةِ دليلٌ على سُفُولِ أصحابِها

وقعَ لفظُ كلمةٍ التي للكفار (والمراد به هنا كلمةُ الشِّرك) مفعولًا به أوَّلَ؛ للدِّلالة على تمامِ الهزيمةِ وتدنِّي السُّفول الذي تخطَّى المؤمنين بها، إلى قولهم الذين يؤمنونَ بهِ، ويحاربونَ دونَهُ، وهذا أبلغُ ممَّا لو قيل: (وجعل الذين كفروا سافلين)، فالتعبيرُ الذي في سياق الآية الكريمة أبلغُ، فلم يبقَ لكلمتِهم شأنٌ، فكيف بأصحابِها؟ فقد كنَّى عن سُفول الكافرين بسُفول كلمتِهم، وقد زاد من تحقيرِ الكلمة إضافتُها للاسم الموصولِ الذي اقتضى بناءَ جملةِ صلةٍ تؤكِّد استحقاقَهم الهزيمةَ والسُّفول، وفيه المناداةُ على ذِلَّتهم وهوان شأنِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمفعول به الثّاني، معرَّفًا باللّام:

السُّفولُ كلُّه مآلُ كلمةِ الكافرين، لأنّ الكفرَ هوانٌ وضعةٌ

﴿ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾، أي: الحقيرةُ المقهورةُ الساقطةُ؛ لأنَّ السُّفلَ يُكنَّى به عن الحقارة، وقد عبَّر بها معرَّفةً باللام، فلم يقل: وجعل كلمةَ الذين كفروا سُفلى، وإنَّما جعل السُّفولَ كلَّه لها، وصرفَهُ إليها تناسُبًا مع حقارةِ مَن أُضيفت إليهم الكلمةُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فأذل اللّه الشرك وأهله، وخذلهم ودحرهم.

معنى الواوِ الاستئنافية:

الاستئنافُ آيةٌ على استقلالِ المعنى

في قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾، الواوُ استئنافيَّةٌ، وليست عاطفةً، ويؤيِّده أنَّ الجملةَ اسميَّةٌ، وما قبلها جملةٌ فعليَّةٌ، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ كلمةَ اللّهِ هذا شأنُها أبدَ الآبدين، ويؤيِّد ذلك قراءةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/205.

العشَرةِ ما عدا يعقوبَ بالرَّفعِ[1] وقولُهم: إنَّه الأوجَهُ، أي: الأليقُ بالمعنى لما فيهِ مِنَ الإطلاقِ، وهذا الاستئنافُ " بمنزلة التَّذييلِ للكلام؛ لأنَّه لمّا أخبرَ عن كلمة الذين كفروا بأنَّها صارت سُفلى؛ أفادَ أنَّ العَلاء انحصرَ في دينِ اللّه وشأنِه"[2]، وعلى قراءة يعقوبَ بنصب تاء التَّأنيثِ هو تذكيرٌ للمؤمنين بالنَّصر، وتعييرٌ ومُراغمةٌ للكافرين بالهزيمة في واقعةِ الهجرة.

دلالةُ إضافةِ الكلمةِ للاسمِ الجَليل، ووضعِ المُظْهَرِ موضعَ المُضْمَرِ:

أشرفُ كلمةٍ هي الّتي أُضيفَتْ للّه، فاكتسبت الوقار والعظمة

أُضيفَتْ ﴿وَكَلِمَةُ﴾، ومعناها هنا: كلمةُ التَّوحيدِ، ودينُه الذي شرعه لعباده إلى الاسم الجليل في مقابلِ إضافةِ نظيرتِها للذين كفروا، إيذانًا بالمبايَنَةِ التَّامَّةِ بين الكلمتين، وتشريفًا بالإضافة، وزيادةَ تشريفٍ بـ "وضْع المظهَرِ موضِعَ المُضْمَرِ؛ إذ الوجهُ أن يقولَ: وكلمتُه"[3]، فقد أدخلَ إظهارَ الاسمِ العظيم المهابةِ والجلالِ على الكلمة.

سرُّ التَّعبيرِ بأسلوب القصرِ؛ بتعريفِ الطَّرفين:

العلوُّ مخصوصٌ بكلمةِ (التّوحيد) دونَ غيرِها

قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾، الضَّميرُ ﴿هِيَ﴾ من الآية الكريمة، ضميرُ فصلٍ أو مبتدأ، "وفيها تأكيدُ فضْلِ كلمةِ اللّه في العلوِّ، وأنَّها المختصَّةُ به دونَ سائرِ الكلم"[4]، فقولُه: ﴿هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ أسلوبُ قصرٍ بطريقِ تعريف الطَّرفين، فقد قصرَ العلوَّ على كلمةِ اللّهِ وحدَها دونَ غيرِها، ومن اتَّبع العلوَّ؛ علا، وأتباعُ كلمةِ التَّوحيد في علوٍّ ما قامُوا بحقِّها، والتَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة يفيدُ الثُّبوتَ والدَّوام والاستعلاء على الزَّمن.

دلالةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ:

الصُّورةُ لا تظهر إلَّا ببيانِ ضدِّها

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/521، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/279، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/97.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/205.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/97.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/522.

﴿ٱلْعُلْيَا﴾، بين (السُّفلى والعليا) طباق، والطِّباقُ هنا - في الجمع بين الشّيء وضدِّه في الكلام - يصوِّرُ التَّصادُمَ بينَ أتباعِ كلمةِ الشِّركِ وأتباعِ كلمةِ التَّوحيدِ، وقد بدأ ببيان شأنِ الأدنى، وثنَّى ببيانِ شأنِ الأعلى إلماعًا إلى عموم النُّصرة، وعلوِّ كلمةِ التَّوحيد وأهلِه.

وقد جعل الطِّباقُ أهلَ كلمةِ التوحيد، وأهلَ كلمةِ الشِّرك في صورةٍ واحدةٍ جامعةٍ للمتباينَيْن؛ فأذلَّ اللّه الشرك وأهله، وخذلَهم ودحرَهم، وأعلى كلمةَ التّوحيدِ: لا إله إلا اللّه، ودينَه الذي شرعه لعباده، وجعلها هي الغالبةَ المنصورةَ على الشّرك وأهله.

براعة التّذييل، وسرُّ الختْمِ بالعزة والحكم:

خُتِمَت الآيةُ بهذه الجملة: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقد جاءت اسميَّةً مستعليةً على الزَّمن، خاليةً من أيِّ توكيدٍ شأنَ سَوقِ الحقائق المقرَّرةِ، والبيِّناتِ الواضحةِ، فهو "المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا، الغالبُ لكلِّ شيءٍ، لايُنْقَضُ شيءٌ من مرادِه، لما يُنصَبُ منَ الأسباب التي لا مطمحَ لأحدٍ في مقاومتها، فلا محيصَ من نفوذِها"[1]، وهي "تذييلٌ لمضمون الجملتين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ﴾...﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ العزيزَ لا يغلبُهُ شيءٌ، والحكيمُ لايفوتُه مقصَدٌ، فلا جرمَ تكون كلمتُه العليا، وكلمةُ ضدِّه السُّفلى"[2].

العـزَّةُ غلبةٌ، والحكمةُ تحقيقُ مـرادٍ، لمن بيده نواصي العباد

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أيَّد، ونصر، وآزر، وأعانَ:

هذه الكلماتُ متقاربةُ المعاني، وكلُّها وردت في الذِّكر الحكيم، ولكلٍّ منها خصوصيَّةٌ، نبيِّنها فيما يلي:

أيَّدَ: فعَّل مِنَ الأيْدِ، أي: القوَّةِ الشَّديدةِ، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُكثرُ تأييدَه[3].

النَّصر نتيجةٌ، والمـؤازرة، والمـعـاونـة والتَّأييد سبيلٌ للنَّصر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/206.
(3) الرّاغب، المفردات: (أيد).

ونصرَ: النَّصْرُ والنُّصرةُ: العونُ، ونصرةُ اللّهِ للعبد ظاهرةٌ[1]، النُّون والصَّاد والراءُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائِه، ونصرُ اللّهِ المسلمين: آتاهم الظَّفرُ على عدوِّهم[2].

آزرَ: آزرَه: أعانَه، وقوَّاه، وأصلُهُ مِن شَدِّ الإزارِ، وآزرْتُهُ: قوَّيتُ أسافلَه، وآزرْتُهُ ووازرْتُهُ صرْتُ وزيرَهُ[3].

وأعانَ: عَوَنَ: العونُ المعاونةُ والمظاهرةُ، يقال: فلانٌ عوني، أي: مُعيني، والتَّعاونُ: التَّظاهرُ[4]. ويتَّضِحُ من بيان هذه المعاني أنَّ النَّصرَ نتيجةٌ، وأنَّ المؤازرةَ، والمعاونةَ والتَّأييدَ سبيلٌ للنَّصر، وأنَّ التَّأييدَ أقوى معاني أسبابِ النَّصرِ، كما يتبيَّن مِنَ المعنى اللُّغوي، ويتبيَّن من ذلك أنَّ الآيةَ الكريمةَ بدأت بالنَّتيجةِ معبِّرةً عنها بالفعل الماضي إلماعًا إلى تحقُّقِها ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، ثمَّ ذكرَ أسبابَها في قولِه: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ﴾.

السُّفلى والدُّنيا:

السُّفلى: يقال: سَفُل فهو سافلٌ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وأسفلُ ضدُّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، وسَفَل: صارَ في سُفْلٍ، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾[5].

السُّفلى من السُّفل: ضدُّ العلوّ، والدُّنيا: من الدّنوّ، وهو القربُ بالذّاتِ أو بالحكمِ

الدُّنيا: دنا: الدنوُّ القربُ بالذَّاتِ أو بالحكم، ويستعملُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلةِ، ويُعبَّر بالأدنى عن الأصغرِ والأرذلِ، وعن الأقربِ، فيُقابَلُ بالأقصى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ [الأنفال: 42][6].

(1) الرّاغب، المفردات: (نصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(3) الرّاغب، المفردات: (أزر).
(4) الرّاغب، المفردات: (عون).
(5) الرّاغب، المفردات: (سفل).
(6) الرّاغب، المفردات: (دنا).

وواضِحٌ منَ المعنيَينِ أنَّ السُّفلى ملازمةٌ لمعنى الحقارةِ، وهذا بيِّنٌ مِن سياقاتِ الاستعمالِ القرآنيِّ، لكنَّ الدُّنيا أوسعُ استعمالًا، فاصطفى النَّظمُ الكريمُ تسميةَ الأحقرِ في مقابلةِ الأوفى علوًّا.

العليا والقصوى:

لفظ العليا لفظ يدلُّ على سموٍّ المكانة، ولفظ القُصوى على بُعد المكان

العليا: عَلَوَ: العينُ واللامُ والحرفُ المعتلُّ ياءً كان أو واوًا أو ألفًا أصلٌ واحدٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاع لايشذُّ عنه شيءٌ، ومن ذلك العلاءُ والعلوُّ، قال الخليل: أصلُ هذا البناءِ العُلُوُّ، فأمَّا العَلاءُ فالرِّفعةُ، وأمَّا العُلوُّ؛ فالعظمَةُ والتَّجبُّرُ[1].

والقُصوى: القَصَا: البُعدُ، والقصِيُّ: البعيدُ، وأقصيتُ: أبعدْتُ، والمكانُ الأقصى والناحيةُ القصوى من هذا المعنى[2].

وواضحٌ أنَّ الصِّيغةَ هذه خاصَّةٌ بالمكانِ والمسافةِ، أمَّا الأُولى؛ فخاصَّةٌ بالمكانةِ والقيمةِ، فاصطفى النَّظمُ ما هو ألصقُ بالسِّياق وأبرُّ بالمقامِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(2) الرّاغب، المفردات: (قصا).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»